من وراء البحار

فرنسا بعد أن وجدت العالم ووجدها

أثارت فرنسا كما تثير دائما ، الكثير من الأقوال ، لا سيما بعد تحريرها ثم بعد انتهاء الحرب الأوربية . وقد نشرت المجلات الأدبية والاجتماعية بحوثاً كثيرة فى وصف ما تحملته هذه الدولة الكبرى من آلام ، وفى حالتها الآن وما ينتظر لها من مستقبل . وقد رأينا أن نقتبس ثلاث صور مختلفة ، تلخص أقوال ثلاثة من الكتاب نشرت فى مجلات فرنسية وانجليزية وامريكية . أولها مقال قيم للأديب الفرنسى بول سارتر نشر فى مجلة « فرانس-أورياز » وهو عن عهد الاحتلال . والثانى خلاصة مقال للسيدة كونارد نشر فى مجلة « هورايزن » الانجليزية وهى تصف فرنسا بعد التحرير . والثالث بحث بقلم المؤرخ الاجتماعى اندريه سيجفريد نشر فى مجلة « الأمور الخارجية » الامريكية ، وكان جديراً بالنقل بأكمله .

فرنسا تحت الاحتلال

يقول الأديب سارتر : ان الانجليز والأمريكان عندما وصلوا إلى باريس دهشوا إذ وجدوا أهلها أقل تحولا مما كانوا يظنون ، ورأوا ثياباً جميلة تبدو عليها الجدة ، ولم يقابلوا إلا نادراً تلك الصفرة التى تدل على الحرمان . وكثيراً ما ينقلب الحنان المخدوع إلى حقد ، ويخشى أن يكونوا قد غضبوا لأن حالة الفرنسيين لم تنطبق على الصورة التى كانوا قد تصوروها . ولعل بعضهم ظن أن الهزيمة كانت نعمة وأن فرنسا يجب أن تعتبر الهزيمة فرصة أنقذتها من شرور ، كما ذكرته غير جريدة انجليزية .

أجل إن الانجليز ذاقوا من ألوان الحرب أكثر من الفرنسيين ؛ فهم عرفوا القنابل الطائرة والخسائر الجسيمة فى أرواح المدنيين ، وشاطروا الفرنسيين فى ألوان من الحرمان تجرها الحرب ، مثل الحرمان الخفى ، ونزول مستوى المعيشة للطبقات ، وانتشار مرض السل . ولكن هنالك أنواعا من المحن لا تعرفها غير البلاد المحتلة .

يجب أن نفهم قبل كل شىء أن الألمان لم يكونوا يسيرون فى الشوارع والسلاح فى قبضتهم ، ولم يكونوا يطلبون إلى المدنيين أن يتركوا لهم أماكنهم وأن يفسحوا لهم الطريق ، بل لقد كانوا يقدمون مقاعدهم فى « المترو » للنساء .

ومع ذلك كان هنالك عدو من أبغض الأعداء إلى الفرنسيين ، ولكن هذا العدو ليس له وجه ، أو على الأقل إن أولئك الذين رأوا وجهه قلما تمكنوا من العودة ليصفوه . وهذا العدو يختطف فى الظلمة خير الرجال ويختص بهم . فانك تذهب لزيارة صديق أو تحاول الاتصال به بالتليفون فلا تجده ، وكل ما تعرفه فيما بعد أنه وجدت آثار ألمانيين زاره بالليل وتحدثوا إليه ثم حملوه إلى حيث لا تدرى .

الواقع أن الفرنسيين كانوا يشعرون فى حياتهم اليومية أن الصلة انقطعت بينهم وبين الماضى ، وأن نظام حياتهم قد تغير . والواقع أن باريس كانت مدينة ميتة لا سيارات ولا مارة ، وأن الناس فيها — إلا فى أوقات معلومة وفى أحياء معلومة — يمشون بين الأحجار . وقد زحفت إلى المدينة فى أطرافها روح الريف ، وبدت شوارعها فسيحة والمسافات فيها بعيدة إذ خلت من أهلها .

لقد ظل الفرنسيون مدة أربع سنوات فى ميزان الأقدار . يظهر الانجليز فى الراديو والصحف الصداقة لهم ، ولكن كان من العبث أن يعتقدوا بأن الانجليز كانوا عندئذ يقاتلون من أجلهم ، بل هم عامل من الأغراض العديدة التى يقاتلون من أجلها . أما الألمان فكانوا على أحسن الفروض يعملون على ضم تلك البلاد للكتلة الأوربية . لقد صار الفرنسيون مثل آنية الزهور التى توضع على نافذة بالنهار وتنقل إلى داخل الغرفة بالليل دون أن تسأل عن رأيها .

هكذا صار الفرنسيون بلا مستقبل ، يعيشون ليومهم والعمال يعملون ليومهم ؛ فقد يقف التيار غداً ، وغداً تقطع ألمانيا المواد الأولية أو تقرر نقلهم إلى باڤاريا أو إلى جهة أخرى من الجهات النائية .

فرنسا بعد التحرير

ووصفت السيدة نانسى كونارد، فى الرسالة التى بعثت بها من باريس إلى مجلة «هورايزن»، شعورها عندما وطئت أرض هذه العاصمة بعد غيبة خمس سنوات، وهى التى كانت تتخذ فرنسا مقاماً وقد قضت عشرين عاماً من حياتها فى باريس تعمل فى الصحافة وهى تقول: «كنت أسير وحدى (ولم أنقطع عن السير منذ ذلك الوقت) فى ميادين الشانزليزيه ومنها إلى تلك الشوارع الواسعة المعروفة بالجران بوليفار حتى أصل إلى بناء البورصة . . . وكنت فى أثناء هذا السير الذى أقوم به لأتصل بفرنسا أقيد بنظرى كل ما يمكن تسجيله. وقد أدهشتنى ثلاثة أمور فى الحال: تلك القبعات التى تضعها النساء فوق رءوسهن، وتلك الأحذية العجيبة الأشكال ذات الكعوب الخشبية، وأولئك الرجال العجيبون الذين يعملون بدل سيارات التاكسى وهم يسوقون مركبات على دراجات أو دراجات ذات محرك وهذه المركبات من الخشب أو المعادن أو الحصير أو كل مايتسع لشخصين ويكون خفيفاً فى ثقله. ولقد قال الألمان للفرنسيات معلقين على هذه القبعات: «ماذا تفعلن لو أنكن انتصرتن فى الحرب؟». ومن السهل أن تقدر كيف أن هذه القبعات الكبيرة التى هى أحياناً عمائم جميلة ظهرت فى عالم الزى أن الغرض منها رفع الرأس فى وجه الألمانى علامة على أن الروح لم تنكسر — أما عن المركبات وسائقيها فيقول الناس: «إن هذا لفظيع، ولكن السائقين رجال أقوياء وهم يكسبون نقوداً كثيرة».

أما الشوارع الكبيرة «جران بوليفار» فهى مليئة بالناس، والحوانيت تبرق بمحتوياتها، والصحف (على أنها للأسف فى صفحة واحدة) تباع فيها وتظل القهوات مفتوحة إلى الساعة الثامنة أو التاسعة ويغلق البعض منها يوماً أو يومين فى الأسبوع. وتباع مياه ملحة الطعم ذهبية على أنها جعة. ويوجد كونياك مقبول ويوجد مشروب القهوة الوطنية. وهذا يكلف ست أو عشر مرات أو عشرين مرة بالنسبة للنوع الأصلى منها».

وتحدثت السيدة عن الكتب التى يقبل عليها الفرنسيون فذكرت كتاباً لبول فاليرى عن برجسون الفيلسوف وقصة اسمها «اوريليان» وذكرت

إقبال الناس على مؤلفات سارتر وكاميس ، وتنبأت بما ينتظر محبي الآداب والفنون في القريب العاجل عند عودة الحياة إلى طبيعتها في العاصمة الفرنسية .

وتكلمت عن المجتمعات الفرنسية في الضفة اليسرى من السين وذكرت قهوتي « دي ماجو، وفلوري » وقالت إن الأخيرة كانت معقلا أدبيا أمام الألمان حتى إنهم كانوا يترددون في الدخول إليها وهي الآن مركز للانتاج الأدبي ، ويجلس سارتر فيها وهو يكتب طويلا عند ما يكون في باريس ، وهي تضم مدرسة في الأدب مؤلفة من جماعات المقاومة ، وكأنها واحة في وسط الصعوبات العديدة للحياة اليومية ، وهي الطعام والنقل وعدم وجود الوقت لتدبير أمور المعيشة .

على أن باريس بالرغم من ذلك هي باريس ، لم تمسسها القنابل إلا في بعض الضواحي حيث التخريب شديد . أما وسط المدينة فهو أنيق ملىء بالنشاط منظم الحياة حي بالروايات المسرحية القديمة والحديثة ودور السينما ومعارض الصور والأزياء . وقد أخذ أربعون من كبار صانعي الملابس يبيعون ملابسهم بخمسة عشر ألف فرنك على الأقل ، وتبيع هذه المحلات ذاتها أزياء القبعات الجديدة بما لايقل عن ثلاثة آلاف فرنك ، ومع ذلك يجدون إقبالا ليس بالقليل .

وتكلمت كاتبة هذه الرسالة عن الروايات المسرحية الحديثة وعن رجال الأدب الملتفين حول مجلة « لتر فرانسيز » وذكرت أن السوق السوداء آخذة في الاضمحلال ، وأشارت إلى اكتشاف صورة جديدة للمصور هنري روسو اسمها « الحرب » .

بعث الروح الفرنسية

على أن المقال الذي كان جديراً بالنقل بأكمله هو مقال أندريه سيجفريد الكاتب المؤرخ الشهير والأستاذ في كوليج دي فرانس ونشرته له مجلة « الأمور الخارجية الأمريكية » وبحث فيه عن بعث الروح الفرنسية . وهو ، كما ذكر في مستهل مقاله ، لا يرغب في كتابة تاريخ ، وإنما يحاول تحليل الشعب الفرنسي كما هو بعد خمس سنوات وهي سنوات مثقلة بالحوادث أكثر من قرون ؛ إذ ليس في تاريخ ألفي سنة مثل ما مرت به منشآت هذه البلاد من اجتماعية وسياسية وأخلاقية في هذه السنوات القليلة . ولقد كان الدمار والاضطراب

كبيراً ، حتى إن فرنسا بعد أن عادت إلى مكانتها واستقلالها وشغلت مركزها بين الأمم لا يمكن اعتبارها وحدة سياسية .

ولكى نعرف مدى هذه الأزمة يجب أن نعود إلى حالة الفرنسيين عندما أعلنت الحرب . لقد كان المجهود الذى بذلته فرنسا فى حرب سنة ١٩١٤—١٩١٨ فوق طاقتها وخسرت فى سبيله مليوناً وخمسمائة ألف من أبنائها الموتى هى فى حاجة إليهم . ولم تكن تشعر بالرغم من انتصارها بأنها منتصرة ؛ فهى لاتنسى سهولة اقتحام حدودها التى اجتازها العدو أربع مرات فى قرن واحد ؛ لذلك كان إلحاحها فى احتلال الجانب الأيسر من الراين والتجاؤها إلى الاستناد بالتحالف مع شعوب سلافية فى الشرق وهى شعوب لا تعوضها عن الحلف مع روسيا التى خسرتها عندئذ ؛ وكان البريطانيون والأمريكيون يلومونها على هذه السياسة فى حين كانت هى تعتقد فى سوء سياستهم ، على أنه ما تجسم الخطر الألمانى حتى كان قد وقع المحذور ، فأبعدت فرنسا عن ضفة الراين ، وصار تدخلها فى وسط أوربا مستحيلا .

ولقد شعر الفرنسيون بشىء من المرارة حين قلبت الدولتان الانجلو سكسونيتان من سياستهما وألحتا على فرنسا بأن تتبع سياسة تؤدى إلى الحرب ولقد صار الفرنسيون وحيدين فى الميدان ، والانجليز على استعداد لتأييدهم بكلمة . ولكنهم من غير جيش ، والولايات المتحدة تأبى أن ترتبط ، ورأت فرنسا عمق الهاوية فى « مونيخ » فتراجعت وبعد سنة أقدمت ولكن إقدام اليائس . فالذين قاتلوا فى حرب ١٩١٤ ظنوها نهاية الحروب ولكن الضرورة تدفعهم لحرب أخرى خاضت فرنسا غمارها فى غير حماسة فهى تبدو لها حرباً نخسر فيها كل شىء ولا تكسب شيئاً .

ومما زاد الحالة سوءاً ما كان من اضطراب داخلى فى السنوات العشر الأخيرة فاضطرابات ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ وحكومة الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٦ بذرت بذور الاختلافات العميقة . ولقد كانت الجمهورية الثالثة موضع تأييد الغالبية من الفرنسيين ، ولكنها لم تستطع منذ إنشائها فى سنة ١٨٧٥ أن تضم جميع الفرنسيين ولقد أخذت تفقد عطف جزء كبير من الطبقات الوسطى ، ففى اليمين قوم يعترفون بشفاههم بالولاء للجمهورية ولكنهم يحتقرونها ويتمنون سقوطها ، وفى اليسار رجال الثورة . وكان من المستطاع السيطرة على هذين

الفريقين قبل ١٩١٤ ولكنهما فيما بعد صارا خطرين بعد أن أمكن فريق الثورة أن يتخذ روسيا الشيوعية مثالا ، وفريق الرجعيين أن يتخذ ايطاليا الفاشستية أو المانيا النازية مثالا . فالمنشآت البرلمانية لا تسير سيرها الطبيعي إذا أعوزها الولاء وصارت الحكومة تلتجىء إلى الرجعيين إذا ما أرادت حفظ النظام وإلى الثوريين إذا ما أرادت الدفاع عن الجمهورية وصار الاختيار بين الثورة والرجعية حاجة ملحة ، حتى إن أمن الدولة لم يعد أحيانا فى المكان الأول وصار لدى العقول المشوهة أنه من الضرورة الأولى هزيمة الثورة بدلا من هزيمة الألمان . وصارت ألمانيا لدى بعض الناس حاجزاً يحتمون به من الفوضى . ونشأ عن هذا الخلاف فى العاطفة الوطنية أزمة أثرت فى معنى فكرة الوطنية نفسها ، وهذه الأمور قريبة جداً حتى ليشك فى اعتبارها من الماضى .

هذه الأمور تفسر السبب فى قبول الهدنة سنة ١٩٤٠ ؛ فلقد كان الشعب الفرنسى يتمنى ألا تقوم هذه الحرب ، ودخلها فى غير عقيدة ثم قال له الزعماء الحربيون إن الاستمرار فى القتال مستحيل . أما الجنرال ديجول ففرق بين موقعة فرنسا وهى موقعة خاسرة وبين موقعة العالم التى يمكن أن تكتسب ، ولكنه فى ذلك الوقت كان لا يمثل إلا عواطف أقلية إذ الظاهر أنه لم يبق ما يعمله إلا تدبير موقف كان من بادىء الأمر سيئاً ، ولا تلبث انجلترا أن تذوق مصير فرنسا وهكذا ذهبت الزعامة القديمة فى هول الكارثة وسادت فوضى لا تظهر أمامها غير نقطة تجمع واحدة هى المارشال بيتان . ولم يكن الناس يعرفون عنه إلا أسطورته ، ولم يكونوا يعرفون أنه بطبيعته من دعاة الهزيمة وأنه بمضى الزمن قد نمت فيه شهوة السلطة لا ليخدم الجمهورية بل ليدمرها .

وأراد بعض الناس أن يعتقدوا أن آراء المارشال لا يمكن أن تكون موضعاً للريبة ، وكان الآخرون لا يؤمنون من دى جول إلا باسمه . والحقيقة أن البلاد كانت كرجل تلقى على رأسه ضربة عنيفة .

لقد كانت القوى التى تستمد منها حكومة فيشى آراءها معقدة ولكن تظهر فيها بعض الصفات البارزة ؛ فهى حكومة مطلقة يستعمل فيها المارشال سلطة « الزعيم الأساسى » . وهى لا تعترف بالاستفتاء العام وهو إجراء متبع منذ قرن فى فرنسا ولقد عملت على نسيان الجمهورية بين شعب متمسك بها واتبعت نظاماً دينيا فى المدارس الابتدائية لم تكن ترغب فيه حتى بعض الأحزاب الكاثوليكية .

وحاولت فى الميدان الاجتماعى القضاء على نقابات العمال على أن تحل بدلها فكرة الدولة النقابية ، وفى السياسة الخارجية تجنبت عقد محالفة حربيه مع ألمانيا ولكنها أعربت عن كراهية للانجليز فى قوة لا يمكن أن تكون غير حقيقية ، ولكن من الجور أن نقول إنها لم تعمل لتخفيف آلام الشعب الفرنسى . ولكن فرنسا الديموقراطية فى زمن الثورة وفرنسا القوية الفخور فى سنتى ١٧٩٢ و١٩١٤ لا يمكن أن تعرف نفسها فى هذا النظام . ولم تقتصر الحكومة على الصمت أمام المنتصر ، بل أظهرت رضا عن مجرى الأمور . أجل ! إن المارشال كان شخصاً محبوباً ، ولكن الاحتجاج على النظام كان يتجمع حول دى جول ، وإن لم يكن هذا إلا رمزاً إذ لم يؤيده أحد من الشخصيات البارزة . ولذلك كان من الصعب الحكم على الاتجاه السياسى لأنصاره . ولقد قال بعض الناس إن أنصاره من الشيوعيين ، وقال البعض إنهم من رجال « الاكسيون فرانسيز » . وهذا يفيد أنه وجد أنصاراً بين اليسار واليمين ، على أن أكثر صفوفه تتألف من اليسار .

وتجمعت تدريجياً الكراهية للأجنبى وصارت لا تحتمل ، ولكن حركة المقاومة لم توجد ولم تنشأ إلا بعد حوادث نوفمبر سنة ١٩٤٢ عند ما ألقى الألمان القناع وألغوا نظام المنطقتين وامتد نفوذهم على فرنسا .

وعند هذا المكان يجب تحليل النفسية السياسية لرجال المقاومة ، ففيها مفتاح الصعوبات الحالية فى فرنسا ، فهم من جميع الأحزاب ولكن أكثرهم من أحزاب اليسار ، والكثيرون بينهم من الشيوعيين ، وهؤلاء الشبان ساروا سيرة المتآمرين ولم يتبعوا النظم البرلمانية ، وهى تجربة جديدة تركت فيهم آثاراً فهم يعتقدون أن حركتهم تمثل رغبة الشعب أكثر من الهيئة المنتخبة ؛ وبذلك تكونت نخبة قد يكون لها تأثير فى عالم السياسة .

وعند ما دخل دى جول باريس فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٤ وجد بلاداً ثملة بالفرح ولكنها من غير نظام سياسى أو إدارى ، لا جيش غير ما يحتاج إليه الميدان ولا قوة بوليس غير التى ظلت فيشى تطهر فيها وتبدل حتى لم يبق لها ما تحسنه إلا دور إيقاظ الاضطراب وهو ما قامت به خير قيام عند التحرير . ولم يبق من الادارة غير خدام فيشى الذين لا يعتمد عليهم . على أن جيوش المقاومة تولت مقاليد الأمور ولم يكن الناس يعرفونها ولم تك منتخبة ؛ لذلك أقامت فى الواقع دكتاتورية .

وجدت الحكومة الجديدة صعوبات من أنصارها المتحمسين الذين ألفوا قوات داخلية فنجحت فى ضمهم إلى الجيش . ومما زاد أمامها الصعوبات انقطاع المواصلات انقطاعاً يكاد يكون تاما . ثم إن أنصار التعاون كانوا لا يزالون يعملون وإن كانوا أقلية ، وسواد الشعب يرغب فى الانتقام منهم انتقاماً سريعاً . فانطلاق الناس بعد أربع سنوات كان أشبه بإزالة جسر تتدفق على أثره المياه وتطغى . فكان على الحكومة أن تستعمل منتهى الحكمة لكى تحول دون الحرب الاهلية . ويظهر أنها كانت مزودة بهذه الحكمة ، وتعرف متى تشتد ومتى تلين ومتى تتجنب اتخاذ قرار . ولقد نجح دى جول فى تفسير الموقف السياسى فأعلن أنه حكومة مؤقتة للجمهورية الفرنسية ، وبذلك اجتذب كثرة الشعب . وقد ظن أكثر الناس أن عمله تم بذلك ، ولكن رجال المقاومة يرون أنه يجب إتمام « الثورة » . على أن لكلمة الثورة معنى خطيراً فى بلد مثل فرنسا ؛ فهم لا يتحمسون لإعادة الجمهورية الثالثة ، وهم متأثرون بروح التغيير الثورى الذى يؤدى إلى الاشتراكية الديمقراطية برياسة الزعيم ، وهذه الفكرة تمليها تقاليد الثورة الفرنسية والشيوعية الروسية . ولا يمكن أن ننكر أن وجود الألمان يترك أثره ، وأن الجو مشبع بالرغبة فى الطرق الدكتاتورية والرغبة عن طرق الحرية ، وفرنسا بلد متصل بالقارة ولا بد أن يتأثر بالآراء التى سادت فى شرقه .

والآن لا يمكن الحكم على سير الأمور غير أن فرنسا وقفت على أقدامها وقامت بمعجزة من الموت وعادت إليها حريتها وشرفها ، فما موقفها بأزاء الدول الأخرى ؟

يعتبر الفرنسى أنه استرد مركزه الأدبى فى العالم ، ويجد حاجة إلى تأكيد هذا المركز مرة بعد مرة فى تعجل عصبى ؛ لأن ذكرى السنوات الأربع لا تزال ماثلة لديه . ففرنسا لا تحتمل أن تشعر بأن مركزها السياسى لا يتفق مع مركزها فى الحضارة . وهى بالرغم مما حاق بها من دمار وما خسرته من رجال وما حل بها من ضيق ومتاعب ، تعمل على أن تسترد من قوتها وزعماؤها يعملون من أجلها .

إن فرنسا لم تقم قط من كبوة بمثل السرعة التى قامت بها هذه المرة . وليس من السهل وصف هذه النهضة العجيبة التى تكاد تكون من المعجزات ؛ فإن الأزمة التى مرت بها فى حرب المائة سنة كانت أقل خطراً لأن حب البلاد عندئذ لم ينفصل عن الولاء للملك . أما فى هذه المرة فقد كانت الحفرة بادية العمق وهول الكارثة جائماً فلم تك نهضة فرنسا إذن إلا بعثا .